مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 25 عدد: 55 السنة:2021

الفكر التربوي بين التنظير والتطبيق عند مالك بن نبي

Educational thinking between theory and application of Malek Bennabi

لينده صياد[1]
جامعة باجي مختار-عنابة
sayadlynda@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2019/07/22 القبول 2020/11/15 النشر علي الخط 2021/03/15
Received 22/07/2019 Accepted 15/11/2020 Published online 15/03/2021

ملخّص:

تعدّ التربية من أهم القضايا التي شغلت فكر الإنسان قديما وحديثا؛ لأنها الشرط اللازم لكل تقدّم وتحضّر تسعى إليه المجتمعات؛ ومن بين المفكرين الذين عالجوا موضوع التربية المفكر والفيلسوف الجزائري "مالك بن نبي" في إطار مشكلات الحضارة؛ لأنها كفيلة ببناء الإنسان وتغييره، خاصة بعدما فقد إنسان ما بعد الموحدين همّته الحضارية وقدرته على التغيير، ومن ثم الإقلاع الحضاري. ولهذا يرى "بن نبي" أن العلاج يكمن في صياغة مفهوم جديد للتربية يقوم على التطبيق والممارسة وليس على التنظير والمفاهيم المجردة، خاصة إذا علمنا أن الحضارة بناء أساسه الإنسان الفعال.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي-التربية – التنظير– التطبيق – الفعالية.

Abstract:

Education is one of the most important problems that has preoccupied human thought in ancient and modern times, because it is the necessary condition for any progress and preparation required by societies. The Algerian intellectual"Malek Bennabi" has approached the question of education in the context of the problems of civilization, because it can build and change the man. As the post-monotheist lost his cultural passion and his ability to change and then remove civilization, he understood between the prophets that the treatment consisted in formulating a new concept of education based on application and practice, and not on the theory. Especially if we know that civilization built on the axis of effective humanization.

Keywords: Malek Bennabi- Education-Theorizing – Application- Effectiveness.

[1]-المؤلف المرسل: لينده صياد البريد الإلكتروني: sayadlynda@yahoo.fr

مقدّمة:

لكل مجتمع بشري ثقافة خاصة به محدّدة بزمان ومكان وتميّزه عن باقي المجتمعات، ويكتسب الإنسان ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، من خلال التربية التي يتلقاها منذ صغره. ولهذا يُعدّ موضوع التربية من بين الموضوعات التي تناولها علماء التربية وكذا علماء النفس بالدراسة والتحليل، لكن غلب على تلك الدراسات جانب التنظير والسعي إلى صياغة النظريات التربوية. وهذا ما جعل المفكر والفيلسوف الجزائري مالك بن نبي يولي اهتماما بالغا بموضوع التربية في إطار معالجته لمشكلات الحضارة. لكن الإشكال الذي يطرح نفسه هو: هل مجال التربية ينحصر في تصورات ذهنية وأفكار نظرية، أم أنه يتعدى ذلك إلى التطبيق والتفعيل؟ بمعنى هل التربية سلوك عملي أم نظرية في المعرفة؟ وما هي أهم الركائز التي تبنى عليها التربية حسب مالك بن نبي؟

ومتى تكون التربية فعالة وكفيلة بمسايرة الواقع العالمي المتغير؟

إن معالجة هذه الإشكالية تنطلق من الغاية التي حدّدها مالك بن نبي للتربية وهي كونها نظرية في السلوك. لهذا ينبغي أولا تحديد مفهوم التربية عند مالك بن نبي ثم تحديد علاقتها بالثقافة؛ إذ لا تستطيع التربية أن تكون أسلوب حياة إلا بوجود تفاعل بين الفرد والمجتمع، وهذا التفاعل هو الذي ينتج شبكة العلاقات الاجتماعية. ولهذا فمن الضروري الوقوف على أهداف التربية عند مالك بن نبي ومن خلالها تتجلى فعالية الأداء التربوي، باعتباره ممارسة عملية وليس تصورات نظرية. وفي الأخير تبيان دور التربية في مواجهة تحديات العولمة الثقافية.

1. مفهوم التربية (Education)

يختلف مفهوم التربية وتعريفها من مجتمع لآخر، ومن ثقافة إلى أخرى، لارتباطها بالتنشئة الاجتماعية واختلاف المجتمعات في فلسفاتها الاجتماعية، وكذا تغيّر ظروفها وإمكاناتها وحاجاتها التربوية في مراحلها التاريخية المختلفة. وقد أدّى كل ذلك إلى اتساع مدلول كلمة التربية.

أ. في اللغة العربية: التربية كلمة مشتقة من الفعل الماضي الثلاثي "ربا" ومضارعه "يربو" بمعنى زاد ونما. قال الله تعالى:﴿**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَ يُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾ [سورة البقرة: الآية 276] أي يزيد الله الصدقات، ويمحق الربا أي الزيادة العينية في الأشياء.[1]

ب. في اللغة الأجنبية: التربية هي Pédagogie أو Education. أما كلمة Pédagogie فهي مشتقة من أصل لاتيني يتكون من قسمين هما: Péda ويعني طفل وGogie ويعني عبد، فيصبح معنى كلمة Pédagogie العبد الذي يرافق الطفل أثناء ذهابه إلى أماكن التعليم وعودته منها. [2]

---

[1] - مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج1، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ص 13.

[2] - Le Robert: dictionnaire d'aujourd'hui, Paris, France,1980,P:334

وأما كلمة Education فهي مشتقة من أصل لاتيني هوEducare ومعناها انتعاش الحياة ورعايتها وتنشئتها ودوامها وصلاحيتها. [1] بمعنى التغذية أو العناية بالطفل بالكائنات الحية من نبات وحيوان. "وفيما بعد بدأت هذه الكلمة تغطي مجالات سيكولوجية وتربوية وثقافية بالغة التنوع، وأصبحت كلمة Education تعني إعداد الطفل ذهنيا ونفسيا وعقليا." [2]

وهذا معناه أن كلمة تربية تطورت من مستوى الدلالة البيولوجية إلى مستوى الدلالة النفسية والعقلية. وقريبا من هذا المعنى يعرّفها جميل صليبا في معجمه الفلسفي على أنها" تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدثون تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئا فشيئا، تقول: ربّيت الولد، إذا قويت ملكاته، ونميت قدراته، وهذّبت سلوكه، حتى يصبح صالحا للحياة في بيئة معيّنة. وتقول تربّى الرجل إذا أحكمته التجارب ونشّأ نفسه بنفسه". [3]

2. مفهوم التربية عند مالك بن نبي

التربية من منظور مالك بن نبي، مشروع مجتمع متكامل، تشترك فيه كل المؤسسات الاجتماعية، وهذا من خلال ضبط منهج شامل يستغرق كل الفضاءات، حيث يستقى من علم التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم النفس. [4] وبذلك تصبح الغاية المحورية من التربية هي وضع نظرية في السلوك، وليس وضع نظرية في المعرفة. فإذا كانت البيئة المتخلِّفة هي التي صنعت الإنسان المتخلِّف، فإن مالك بن نبي يعتبر أن بناء المجتمع المتحضّر يقتضي العناية بالتربية من أجل توجيه الإنسان نحو أسباب التحضر.

كما يقترح مفهوما آخر للتربية، من خلال صياغة العملية التربوية على شكل آليتين تربويتين هما: **الاشراط** و**التكييف** لشخصية الفرد ليصبح مؤهّلا للحياة الاجتماعية، حتى يقوم بدوره الاجتماعي المنسجم مع استعداداته الفطرية ومهاراته المكتسبة. وفي هذا السياق يقول: «ينبغي أن نحدّد هنا أنّ وحدة هذا المجتمع ليست الفرد، ولكنها الفرد المشروط (المكيّف)؛ لأنّ الفرد يأتي إلى هذه الدّنيا في حالته الفطريّة البدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله، ليكيّفه طبقا لأهدافه الخاصة، تكييفا يجعل الفرد أهلا لأن يتخذ مكانه، ولأن يقوم بدوره في المجتمع». [5]

ومعنى ذلك أنّ وحدة المجتمع لا تتمثّل في الفرد الخام ولكن في الفرد المشروط أو الشخص؛ وهو الفرد الذي تمكنت التربية من نقله من وضعية الفرد في حالته الطبيعية الفطرية إلى وضعية الفرد المكيّف الذي صقلته التربية، وحددت دوره في المجتمع، ومن ثم يسعى إلى تحقيق الغاية التي وجد من أجلها وهي العبادة والاستخلاف في الأرض وتعميرها.

3. الأهداف التربوية

التربية عملية هادفة ترمي إلى تحقيق مقاصد المجتمع وتطلعاته على المستوى الفردي والاجتماعي والعالمي. كما تعكس قدرتها على تحديد صورة الإنسان المستقبلي التي يريدها المجتمع لنفسه. بمعنى آخر هي "تلك التغييرات التي يراد حصولها في سلوك الإنسان

---

(1) - Ibid. P:734

(2) - علي أسعد وطفة: أصول التربية (إضاءات نقدية معاصرة)، لجنة التأليف والتعريف والنشر، الكويت، ص 38.

(3) - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص 266.

(4) - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ص75.

(5) - المصدر نفسه: ص ص65، 66.

الفرد، وفي ممارسات واتجاهات المجتمع المحلي أو المجتمعات الإنسانية. فهي تصف الصفات العقلية والنفسية والشخصية التي يتمتع بها الفرد المثقف تثقيفا عاليا، وهي تصف أيضا المجتمع الراقي المتحضّر. وهذه الأهداف هي الثمرات النهائية للعملية التربوية." [1]

ونفهم من هذا التعريف أن الأهداف التربوية هي ترجمة لغايات المجتمع التربوية وطموحاته وتتخذ كسياسة تهدف إلى بناء مجتمع يحمل سمات وخصائص محددة. "والهدف التربوي في عمومه هو عبارات تصف تغيرات أو نواتج مرغوبة، أو مرتقبة من خلال برنامج تربوي، وتصنف الأهداف التربوية في أنواع ثلاثة هي الغايات التربوية، والمقاصد التعليمية، والأهداف الإجرائية (السلوكية). [2]

3. 1 الغايات التربوية: تتحدّد الغايات التربوية في إطار المرجعية القيمية أو الفلسفة التربوية التي تميّز مجتمعا بعينه، وهي بعيدة المدى وعامة، وتأخذ طابعا شموليا قد يمتد ليشمل حياة الفرد بأكملها، أو حياة المجتمع في مراحل زمنية متواصلة. [3] ومعنى ذلك أن الغاية التربوية "تستند إلى تنظيم قيمي فلسفي اجتماعي وهي بعيدة المدى. ومن الأمثلة على الغايات التربوية: إعداد المواطن الصالح، تنمية ثقافة عربية عصرية". [4] ويمكن التمييز بين الغاية التربوية والهدف التربوي، الأولى مفهوم فلسفي وقيمي أساسه النظر ومجاله واسع، والثاني مفهوم أقل شمولا من الغاية، وأساسه الفعل والتطبيق التربوي.

3. 2 المقاصد التعليمية: (الأهداف التعليمية العامة)

المقصود بالمقاصد التعليمية "مجموعة الأهداف المطروحة للتعليم المدرسي كله، أو لمراحل منه، أو لبرامج دراسية، أو لمواد دراسية، وبذلك فهي مستويات متدرجة. ومن الأمثلة على تلك الأهداف أو المقاصد: تنمية التفكير الابتكاري لدى الطلاب، تأكيد العلاقة بين العلم والتكنولوجيا والمجتمع، إعداد التلاميذ للحياة العملية". [5] تسعى إلى تنمية مهارات المتعلم من خلال تعليم خبرة دراسية معينة وجدت في إحدى محاور المنهاج. [6]

ومنه نستنتج أن الغايات التربوية توجه الأهداف التعليمية، ومن ناحية أخرى تعمل الأهداف التعليمية على تجسيد الغايات التربوية.

3. 3 الأهداف السلوكية: (الإجرائية) "تستخدم من أجل وضع المقاصد التعليمية في عبارات واضحة وقابلة للقياس. ويمكن تعريف الهدف الإجرائي بأنه توقعات سلوكية ينتظر حدوثها في شخصية التلميذ نتيجة مروره بخبرة تعليمية معينة". [7] وفي هذا المستوى من الأهداف نصل إلى تحصيل نتائج التعلم المرغوب فيها، من خلال ملاحظتها في سلوك المتعلمين، ومن ثم تؤدي دورها في خدمة الأهداف التربوية العامة.

نستخلص مما سبق، أن الأهداف التربوية تتجاوز حدود المفاهيم النظرية؛ لأنها تتحول إلى سلوكات عملية. وهذا ما يمكن ما سعى إلى تجسيده مالك بن نبي عندما ربط التربية بالثقافة؛ لأن هذه الأخيرة تجسد القيم والمبادئ التي يؤمن بها المجتمع، وللإنسان

---

(1) – ماجد عرسان الكيلاني: أهداف التربية الإسلامية، ج2، مؤسسة الرّيان، بيروت، ص13.

(2) – محمد السيد علي: موسوعة المصطلحات التربوية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمّان، ص 25.

(3) – علي أسعد وطفة: أصول التربية، ص 320.

(4) – محمد السيد علي: موسوعة المصطلحات التربوية، ص 25.

(5) – المرجع السابق: ص 26.

(6) –ماجد عرسان الكيلاني: أهداف التربية الإسلامية، ج2، ص 14.

(7) – محمد السيد علي: موسوعة المصطلحات التربوية، ص 26.

الدور الفعال في ترسيخها، من خلال رسم أهداف تربوية تعبر عن آمال المجتمع وطموحاته. فكيف ربط مالك بن نبي بين الثقافة والتربية؟ وبمعنى أدق أين تكمن العلاقة بينهما؟

4. العلاقة بين التربية والثقافة عند مالك بن نبي

ينطلق مالك بن نبي عند تحديده لمفهوم الثقافة، من حاجة كل مجتمع إلى تكوين فهم مستقل وخاص به لطبيعة ونوعية مشكلته الثقافية بحسب مرحلته التاريخية، وبالتالي لا يمكن استيراد الحلول من مجتمع آخر. وهذا ما جعله يقوم بانتقاد الوضع السائد في البلاد العربية من حيث تبني تعريفات المدرسة الغربية دون ملاحظة الجانب الناقص في التعريف بالنسبة لواقع العالم الإسلامي؛ لأن وضع تعريف لغوي لا يحلّ المشكلة ولابد أن يكون مفهوم الثقافة نابعا من بيئتها الاجتماعية والتاريخية، حتى يتسنى لنا إدراكها من جميع جوانبها ومن ثمّ نتمكن من فهمها باعتبارها واقعا اجتماعيا. [1]

ومن هذا المنطلق كان تعريفه للثقافة مبنيا على اتجاهات ثلاثة:

الاتجاه الأول: العناصر النفسية (سلوك الفرد).

الاتجاه الثاني: العناصر الاجتماعية (أسلوب الحياة في المجتمع).

الاتجاه الثالث: العلاقة المتبادلة والضرورية بين هذه العناصر أي بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في مجتمع معيّن.[2] ويُفهم من هذا التعريف أن الثقافة تشتمل على معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد نتيجة عملية التركيب التي تحدثها الشرارة الروحية.

لقد أكّد مالك بن نبي على وجود ارتباط بين التربية كأداة، ومنظومة القيم الثقافية كمحتوى تربوي، والحضارة كمنتوج تربوي. [3] ولهذا يتناول مفهوم التربية في إطار مشكلة الثقافة، ويعرّف التربية بناءً على ذلك. حيث تتمثّل العناصر الثقافية في الأخلاق والجمال، والمنطق العملي، والصناعة الفنية، في شكل برنامج تربوي كفيل بتغيير الإنسان، على مستوى المناخ النّفسي والاجتماعي والإنساني. [4]

وانطلاقا من هذا التصور، يرى مالك بن نبي أنّ مواجهة مشكلة الثقافة، يكون حسب درجة التطور في مجتمع ما، وكذا مرحلته التاريخية حيث يقول: «إن العالم العربي الإسلامي يختلف في موقفه من الثقافة عن العالم الغربي وعن العالم الشيوعي، فليست مشكلته منحصرة في محاولة فهم الثقافة، وإنما في تحقيقها بصورة عملية».[5]ومعنى ذلك أن مشكلة الثقافة في مجتمعنا العربي العربي الإسلامي لا تنحصر في فهم وتفسير النموذج الثقافي الموجود في الواقع بقدر ماهي مشكلة إيجاد وترقية ثقافة جديدة تساهم في تحقيق معاني التحضّر في حياة الإنسان المسلم بشكل عام، ولا يمكن بلوغ هذا الهدف إلاّ في إطار منهج تربوي قابل للتحقيق.

---

[1] -نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دار السعودية للنشر، الرياض، ص155.

[2] -مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص43.

[3] -عمر النقيب: مقوّمات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، ص 54.

[4] -مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص100.

[5] -مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص61.

وبما أن التربية هي التجسيد العملي لثقافة المجتمع، والثقافة هي مصدر إلهام للتربية بحكم أنّها هي التي تضفي دلالة تاريخية على الفعل التربوي ذاته؛ فإنّ الفرد يصبح مرآة عاكسة لـ«ثقافة النموذج» مهما كان موقعه الاجتماعي أو الوظيفة التي يحتلها. حيث يستوي في ذلك الطبيب والفلاح والراعي والحاكم. فالطبيب يمكن أن يتّحد مع الرّاعي في السلوك الاجتماعي على الرّغم من اختلاف طبيعة السلوك المهني لكل منهما. [1]

وبما أن الثقافة هي أحد مكونات النظام الاجتماعي، فإن علاقتها بالتربية علاقة تفاعلية قائمة على تبادل التأثير والفعل، حيث يؤدي كل منهما دور المنتج الحيوي للآخر في نسق علاقات جدلية متنامية بصورة أزلية. [2]

ويُفهم من هذا أن الثقافة دستور تقتضيه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي. والثقافة أكثر شمولا من التربية؛ لأن الثقافة تمثل مادة التربية وجوهرها، ومن ثم تشكل الثقافة الإطار العام للتربية، حيث تحدد محتواها وأبعادها ووظيفتها، أما التربية فيتمثل دورها في تأصيل الثقافة وترسيخها في السلوك الاجتماعي. وإذا كانت الثقافة هي مجموع الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، فحريّ بنا تناول موضوع التربية في جانبيها الفردي والاجتماعي.

5. الدور التربوي التفاعلي بين الإنسان والمجتمع

إن المجتمع الذي يريد ويقرر الالتحاق بالركب الحضاري، ليس عليه أن يفكر في منتجات الحضارة ومظاهرها الخارجية، والجري وراء اقتنائها وتكديسها؛ وإنما عليه التفكير في الأسس الضرورية التي يجب توفرها من أجل البناء الحضاري. ومن أهمها الإنسان والمجتمع.

5. 1 الإنسان:

يعتبر الإنسان محور الفاعلية الحضارية، فدوره في الحياة الدنيوية لا يقتصر على الشرب والأكل والنسل والتملك، من أجل ضمان استمرار النوع، بل يتعداه إلى مراقبة جميع أعماله، وتوجيهها نحو غايات أخلاقية تتلاءم وطبيعته الإنسانية. [3] "وهكذا يعمل الإنسان بداعٍ من طبيعته من أجل الحفاظ على النوع، وبوحي من ضميره من أجل تقدمه، فهو إذن مزود بسلطة مزدوجة، لكن التكليف هو الذي ينظم العلاقة الداخلية لهذه السلطة المزدوجة، تنظيما يكون معه عمل الغرائز واندماجها مطابقا لرسالته الاجتماعية". [4]

ومن هنا يرى مالك بن نبي أن مفتاح الإقلاع الحضاري، هو الخروج من عالم الأشياء والأشخاص، والدخول إلى الأفكار والفعالية التي ينتجها الإنسان، ويستثمرها في تغيير واقعه الذي يعاني من الشيئية والتكديس. وهذا مصداقا للآية الكريمة: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**» [سورة الرعد: الآية 11]

---

[1] -المصدر نفسه: ص 51.

[2] -علي أسعد وطفة: أصول التربية (إضاءات نقدية معاصرة)، ص 90.

[3] - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 70.

[4] -المصدر نفسه: ص 71.

وحتى يتحقق التغيير في أي مجتمع، يجب أن يتم أولا داخل النفوس، وبذلك يتوفر الشرط الجوهري في ارتفاع المسلم إلى مستوى الحضارة، وبالتالي يستطيع إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين. لكن لن يتمّ ذلك إلاّ عندما تتوفر ثلاثة شروط هي:

–أن يعرف المسلم المعاصر نفسه: وألا يغالط نفسه في معرفة نفسه، مثلا أن يعرف أن مشكلته الحقيقية في القابلية للاستعمار قبل أن تكون في الاستعمار.

–أن يعرف الآخرين: من غير كبرياء أو تعالٍ، حتى ينجح في تبليغ رسالة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة. [1]

–أن يعرِّف الآخرين بنفسه: بعد أن يكون قد حقق الصورة اللائقة، المرضية والمتسمة بالأخلاق الفاضلة والقيم الإسلامية، وهذا بعد التغلب على رواسب التخلف ومظاهر التأخر. فإذا استطاع المسلم المعاصر أن يحقق هذه الشروط الثلاثة، فإنه يستطيع أن يبلغ مستوى الحضارة. [2]

يتحدّث "مالك بن نبي" في كتابه(La réalité et le devenir) "الواقع والمصير" عن أهمية التربية المبكرة. فالطفل يملك كيانا نفسيا منذ لحظة ولادته، حيث يقوم من غير وعي أو إرادة منه بتمثّل وتصور الأشياء والعناصر المحيطة به والتي نسميها "العناصر الثقافية". [3]

وهذا على أساس نكتشف "أن الثقافة تتشكل من الألوان، والألحان والإيقاعات والأصوات، الروائح، الصمت، الأضواء والزوايا المظلمة (...) الثقافة هي كل هذا الجو الذي يتحرك فيه الإنسان، يتطور ويلاحظ وجوده في هذا الإطار العام."[4] مثلا من الناحية النفسية يرى المولود الجديد يومه صافيا نقيا، ثم بعد ذلك يبدأ اندماجه وتفاعله مع المحيط الخارجي الذي أطلق عليه اسم العناصر الثقافية. فالألوان والأصوات والسلوكيات والأفكار، لا تعني شيئا بالنسبة إليه ولكنها تحمل رسائل تحفظ في اللاشعور. ولتوضيح ذلك أعطى مثالا عن الأم التي تبالغ في قلقها حيث تستجيب لبكاء رضيعها عند الجوع فترضعه كلما بكى، فيدرك عندئذ أنه يكفي أن يصرخ حتى تلبى كل حاجياته، على خلاف الأم التي عودت وليدها الرضاعة المنتظمة بحسب الأوقات التي حدّدها الطبيب فيتعود على تلك المواعيد ولا يلجأ إلى الصراخ. [5]

ومعنى ذلك أن التربية تساعد الفرد على التكيف والتفاعل مع بيئته، وهذا يتطلب مساعدته على تنمية جسمه وعقله وتربية ميوله وتهذيب خلقه وإكسابه عادات حسنة ومهارات نافعة.

خلاصة القول، أنه لا يمكن الحديث عن فعالية الإنسان في غياب التربية الاجتماعية، لهذا فمن الضروري استنباط المحتوى التربوي الكفيل بصناعة الإنسان الفعال، والذي لا يكتمل إلا بنسج الصلات أو الروابط الاجتماعية.

5. 2 المجتمع:

(1) – مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، ص43.

(2) – المصدر نفسه: ص44.

(3) - Malek Bennabi : La réalité et le devenir,Dar alem el afkar,édition en Algérie,2004, P : 55

(4) - Ibid .P : 56

(5) - Ibid. P :57

تقوم التربية الاجتماعية حسب مالك بن نبي على قواعد عامة، تستخرج من علم التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم النفس. وميزة هذه القواعد أنها نظرية وواقعية في الوقت ذاته. [1]

والتربية الاجتماعية بالنسبة إليه هي الثقافة، إذ من خلالها يتم تأهيل الفرد لتجسيد معنى التحضّر والدليل على ذلك قوله: "إذ ليس الهدف منها–التربية الاجتماعية–أن نعلّم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة، ولكن الهدف أن نعلّم كل فرد فن الحياة مع زملائه، أعني: أن نعلمه كيف يتحضّر." [2] ومعنى ذلك أنّ التربية لا تنتهي بانتهاء تعليم الفرد الرسمي في المدرسة أو الجامعة، بل تدوم دوام حياته وتستمر مع استمرارها، وعليه تقوم التربية مدى الحياة بإعداد الفرد ليساهم في تطوير مجتمعه، ومواجهة المتطلبات العاجلة للعالم في وقت يتسم بالتحول والتغير الدائم والسريع. وهنا يتجسد الجانب العملي في التربية حسب مالك بن نبي.

ولهذا يعرّف التربية الاجتماعية فيقول: «هي وسيلة فعالّة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكوّن معهم مجموعة القوى التي تغيّر شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، وكيف يكوّن معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدّي نشاطه المشترك في التاريخ». [3]

وتزيد فعالية الأفكار، كلما كانت شبكة العلاقات الاجتماعية قوية ومتينة. ويتجلى هذا في قوله: «فالأصل في فعالية الأفكار أو اضمحلالها، إنما هو درجة الكثافة التي تكون عليها شبكة العلاقات الاجتماعية. ولهذا لا يمكن أن نتصوّر عملا متجانسا من الأشخاص والأفكار والأشياء، دون هذه العلاقات الضرورية؛ وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعّالا مؤثّرًا». [4]

نستنتج ممّا سبق ذكره، أن شبكة العلاقات الاجتماعية تشكل القاعدة التي تمكّن مصادر الفعل الإنساني الثلاثة من العمل والتأثير في صناعة التاريخ وهي: عالم الأفكار، عالم الأشخاص، وعالم الأشياء. والتي لا تعمل منفصلة عن بعضها، بل يحركها ويفعّل عملها، عالم رابع هو شبكة العلاقات الاجتماعية. ومن ثمّ لا يمكننا الحديث عن مجتمع متحضّر في غياب التربية الاجتماعية التي توجه الفرد نحو تحقيق غايات تربوية، في إطار المرجعية القيمية أو الفلسفة التربوية للمجتمع.

6. أهداف التربية عند مالك بن نبي

أكد مالك بن نبي على أهمية تطبيق الأفكار الإيجابية في واقعنا الاجتماعي، وعدم الاكتفاء بالتصورات النظرية لمختلف القضايا. وأطلق على ذلك اسم –المنطق العملي–حيث يقول: "إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدمات محدّدة، غير أنه من النادر جدا أن نعرف المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معيّنة". [5] ولهذا كان العلم مقدمة والعمل نتيجة.

لابدّ للعلم من ترجمة عملية تؤكد حقيقة وجوده؛ وكذا تقويم فعالية الوسائل المستعملة حتى نقف على أسباب التأخر أو الركود؛ "لأنّ الذي ينقص المسلم اليوم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة؛ وهو لا يفكّر ليعمل بل ليقول كلاما مجرّدا، بل إنه

---

[1] – مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص75.

[2] – المصدر نفسه: ص 99.

[3] – المصدر نفسه: ص 100.

[4] –مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص38.

[5] –مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص85.

أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثّرا، ويقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحوّل في الحال إلى عمل ونشاط".[1]

ومن هنا يربط مالك بن نبي بين مفهومه للفاعلية ومفهومه للمنطق العملي، فالمسلم يتصرف في أربع وعشرين ساعة كل يوم، ولهذا يجب عليه أن يعرف كيف يتصرّف في هذا الوقت. وإذا كان له نصيب من العلم أو حظ من المال، يفترض أن يعرف كيف ينفق ماله، ويستغل علمه أيضا. إذا أراد أن يتعلّم علمًا أو حرفة، فيجب عليه أن يعرف كيف يستخدم إمكاناته المتاحة في سبيل الوصول إلى ذلك العلم أو تلك الحرفة، ويقارن بين نشاط الرجل الأوروبي والرجل المسلم، فيجد أنّ الرجل الأوروبي يتمتّع بالنشاط والعزم، والحركة الدائبة أي بالفاعلية، بينما الرجل المسلم رغم ما تحمل رسالته من مقومات المنطق العملي، إلاّ أنه لا يطبقها. ولهذا من الأفضل أن يقال عن مجتمعنا الإسلامي، أنه لا يعيش طبقا لمبادئ القرآن ولكنه يتكلّم تبعا لمبادئ القرآن، لعدم وجود المنطق العملي في سلوك الأفراد. [2]

وفي غالب الأحيان لا تكمن المشكلة في فكرة العمل ذاتها وإبداع الأفكار فقط، وإنما في عجز المسلم عن تصور كيفيات الربط بين العمل كفكرة نريد أن نحققها والأدوات التي تمكّننا من إنجاز هذا العمل في الواقع؛ أي في إبداع وسائل تحقيق الأفكار وتجسيدها. [3]

"ألح مالك بن نبي على الفعالية، وعلى ربط منطق الفكرة بمنطق العمل، من أجل القضاء على عقمنا الاجتماعي الذي جعلنا نتكلم تبعا لمبادئ القرآن الكريم، دون أن نعيش وفقها، وجعل سياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، ولا كيف تجسدها في الواقع". [4] يقول مالك بن نبي: «فليست التربية مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء، وليست هي من إنتاج المتعالمين وبحار العلوم، الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم، دون أن يلمّوا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع، خيرا كانت أم شراً، أو أولئك الذين يعرفون جميع المبادئ والتعاليم التي جاءت في الإسلام، دون أن يستطيعوا تطبيق مبدأ أو تعليم واحد لتغيير أنفسهم، أو تغيير بيئتهم». [5]

ونفهم من تحليله لفكرة المنطق العملي، أن التربية ممارسة وتطبيق في الواقع الفعلي، وليست مفاهيم نظرية تلقّن وتعلّم. خاصة بعدما أصبح واضحا أن النظم التربوية في العالم الثالث تعتمد على الأساليب التربوية التقليدية القائمة على التلقين وحفظ المفاهيم النظرية وعدم تفعيلها في الواقع. وحتى تؤدي التربية دورها الكفيل بصناعة الإنسان الفعال، لا بد من الاهتمام بالتربية الروحية.

6. 1 التربية الروحية:

[1] -المصدر نفسه: ص ص87، 88.

[2] -المصدر نفسه: ص 87.

[3] -عمر النقيب: مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص93.

[4] -عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، سلسلة الدراسات حول مالك بن نبي، ص 121.

[5] - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص ص 99، 100.

يولي مالك بن نبي أهمية كبيرة للفكرة الدينية؛ لأنها من البواعث النفسية التي تولّد الفاعلية وتحفز الإنسان على النشاط وتشحذ الهمم، حيث كانت منبع الحضارات التي أنارت العالم وطبعت قوانين الإنسان وعلومه. [1] ومن ثمّ أصبحت مصدر إرادة الإنسان، والموجه لعملية البناء الحضاري. وحتى حينما تكون غيبا من نوع زمني، مثل الأيديولوجيا ومشروع المجتمع، فهي التي تفسر نشوء الحضارات في التاريخ. بالإضافة إلى ذلك، لا يمكن أن تكون عناصر المعادلة الحضارية فعالة (الإنسان، التراب، الوقت)، إذا غاب العامل المركب وهو الفكرة الدينية. كما أن الحضارة لا تنبعث إلاّ إذا استطاعت الفكرة الدينية أن تولد الوعي بتحقيق هدف معين، فتصبح الحياة ذات دلالة ومعنى. "وهي حين تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل ومن طبقة إلى أخرى، فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع ودوامه، وذلك بتثبتها وضمانها لاستمرار الحضارة". [2]

كما تهدف التربية الروحية إلى ترقية الإنسان وانتشاله من الاستغراق في عالم المادة، ومن ثم يحقق التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي وتستقيم حياته. وبما أن التربية تسعى إلى تكوين الإنسان الفعال الذي يغيّر ذاته أولا، ثمّ يعمل على تغيير محيطه، فلابدّ أن يكون التعليم جزءا لا يتجزأ من العملية التربوية.

6. 2 التربية التعليمية:

تندمج الوظيفة التعليمية ضمن الخطوط الكبرى لمشروع ثقافة مجتمع؛ أي لمشروع تربوي أشمل منها. فقد كتب بن نبي يقول بهذا الشأن: «فقد علّمتنا تجربتنا بالجزائر، أن الثقافة لا تُستورد بنقلها من مكان إلى آخر، بل يجب خلقُها في المكان نفسه؛ لأن البيئة ليست إحدى لوحات الرسم التي نفكُّها من مسمار الجدار الذي عُلِّقت عليه، لكي ننقله إلى منزلنا». [3] بمعنى أن تلك البرامج غير مستمدة من واقعنا ومن ثقافتنا، وصحتها تأكدت خارج بلادنا. "إذ أن الصيغة المقتبسة صحيحة بلا أدنى شك، ولكن في إطارها الاجتماعي، في محيطها الذي تخلّقت فيه في نفحة الروح التي تخيّلتها". [4]

إذن غياب المنطق العملي الموجه من طرف مرجعية نابعة من هويتنا منسجمة مع خصوصيتنا الإسلامية، جعلنا نفكر في تكوين المتعلم الإيجابي الذي يحركه مبدأ أخلاقي من أجل خدمة مجتمعه، وذلك من خلال تغيير برامج التعليم المستوردة من الدول الغربية، واستبدالها ببرامج تراعي خصوصية وهوية المجتمع المسلم، وهنا يبرز الدور التربوي الذي أكد على أهميته مالك بن نبي، في تحقيق مشروع تغيير الإنسان.

وما نعاني منه اليوم على المستوى التربوي والتعليمي، هو التركيز على الجانب التحصيلي والمعرفي، والعمل على نقل الكم الهائل من المعارف والخبرات عن طريق التلقين والإلقاء. في حين نحن بحاجة ماسّة في القرن الواحد والعشرين إلى **التعلم للعمل** – Savoir) (faire؛ لأن عصر الثورة العلمية والتكنولوجية وما يرتبط بهما من تغيرات على جميع الأصعدة، أدّى إلى استحداث تخصصات جديدة تستلزم تطوير التعليم، من أجل تحقيق عمل مبدع. [5] لكن ليس معنى هذا إعداد المتعلم لمهام مهنية مادية فحسب، بل

---

[1] – مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ص 69.

[2] – مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 80.

[3] – مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 2005، ص83.

[4] – مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص103.

[5] – أحمد أوزي: التعليم والتعلم الفعال، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ص21.

لابدّ من **تعليمه كيف يعيش** (Savoir – vivre) مع الآخرين، إذ يحتاج المتعلمون إلى العمل التعاوني مع أفراد مختلفين. "فاكتساب احترام الآخرين وأفكارهم، له أهمية متزايدة في مجتمع يعرف تباينا سكانيا... خاصة وأن العنف في مختلف ضروبه، ما فتئ يعرف انتشارا متزايدا، ممّا ينقُضُ الأمل الذي عقده البعض على تقدم البشرية." [1]

عندما نتأمل في هذه الأفكار التربوية المعاصرة، نجد بن نبي قد سبق وأن أشار إليها في القرن الماضي، لما رأى أن الهدف من التربية الاجتماعية (والتعليمية)، هو تعليم كل فرد فن الحياة مع زملائه، أي كيف يتحضّر.

ومن هذا المنطلق، فلا يمكن للنشاط التربوي أن يكون فعّالا إلاّ إذا كان متكيفا مع ثقافة مجتمعه، أو مع "الرأسمال الثقافي" حسب بيير بورديو الذي تحدث عن الشروط الاجتماعية الضرورية لممارسة النشاط التربوي، بدءا من العائلة التي تتولى مهام التربية في السنوات الأولى، وبمشاركة مؤسسات التعليم التي تعمل على إعادة إنتاج التعسف الثقافي، حتى يصبح العمل التربوي عملا راسخا في أذهان المتلقين، وتشكيلة دائمة ترتبط بالسلطة التربوية التي أسّسته وتحافظ على ضمان استمراريته. [2]

وما يمكن استخلاصه من فكرة السلطة التربوية، هو وجود آلية أخرى تعمل على ترسيخ العمل التربوي في أذهان المتلقين حتى يتحول إلى سلوكات عملية وينتج اللُّحمة الثقافية، حين يؤسس على التسلط والهيمنة من خلال وسائل رمزية كاللغة والصورة واللعب والإيماء... وهو ما أطلق عليه بورديو "العنف الرمزي". وهنا لم يلتزم الأفراد بمقومات ثقافتهم باقتناع ورضا، بل بتعسف وعنف رمزي، ولهذا يصبح أساس الثقافة هشّ وقابل للانهيار في أية لحظة.

وفي نفس السياق، يذهب "باولو فرايري" في كتابه "تعليم المقهورين" إلى الحديث عن السلطة القاهرة التي لا ترغب في تغيير الوضع السائد، وتريد أن يتأقلم أفراد المجتمع مع ظروف القهر، وبالتالي مع السيطرة والاستغلال. [3]

ويرى فرايري "أن عملية التعليم الحقة، هي التي تقود المتعلمين إلى الحرية، وتتم هذه العملية بطريقة حوارية تكشف عن التصورات المبدعة، وتحرّك وعي الناس لتمثل هذه التصورات". [4] وعليه لا بد من الحرص على إعداد برامج ومقررات تعليمية نابعة من ثقافة مجتمعنا وهويته وأصالته القائمة على الأخلاق والحوار وقبول الرأي الآخر، ومن ثمّ الابتعاد عن كل أنواع التسلط والتعسف والقهر.

ونستخلص مما سبق، أن فعالية الإنسان لا يمكن تحقيقها من مجرد تلقين معارف علمية، بل من خلال عمل تربوي لغرس القيم الثقافية وتعزيز التربية الأخلاقية في الفرد. ولن يُؤتي هذا العمل ثماره، إلا إذا كان بمشاركة وتعاون كل من الأسرة والمدرسة والمسجد، فهي جميعها تساهم بقسط كبير في تربية الأفراد وتغيير سلوكهم.

6. 2 التربية الأخلاقية:

---

[1] – المرجع السابق: ص22.

[2] – بيير بورديو: العنف الرمزي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص 46.

[3] – باولو فرايري: تعليم المقهورين، ترجمة نور عوض، دار القلم بيروت، ص53.

[4] – المرجع نفسه: ص59.

يقصد مالك بن نبي بالأخلاق جانبها العملي الاجتماعي وليس الفلسفي. فالأخلاق تربط الأفراد برباط قويّ متماسك بحيث تتآلف الشعوب مشكّلة وحدة تاريخية. [1] ويرجع مصدر هذا التماسك إلى الغريزة الاجتماعية عند الفرد وهي التي تسمح له بتكوين القبيلة والعشيرة والمدينة والأمة. وتستخدم المجتمعات البدائية هذا الجانب في إقامة كيانها، وكذلك المجتمعات التي تريد تكوين حضارة تتجمع بالغريزة نفسها ولكن على أساس أخلاقي يهذّبها. كما أنّ الروح الخلقية تتكوّن لدى الجماعة انطلاقا من الدّين السماوي الذي يستمدّ منه الدوافع والغايات التي تحدّد للمجتمع التاريخي وجهته. [2]

وهذا ما أكّده القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى:﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[سورة الأنفال: الآية 63]

إذن فلا يمكن للتربية أن توجد أسلوب الحياة في المجتمع، إلاّ إذا كانت متضمنة لعنصر يربط الأفراد بأسلوب حياتها، بحيث لا يشذّون عنه، ألا وهو المبدأ الأخلاقي، الذي يمثل صورة نفسية للجمال.

6. 3 التربية الجمالية:

لقد عرف الإنسان حضارات مختلفة ومتمايزة لكنها لم تخلو من البعد الجمالي. والتربية الجمالية "هي تلك الطرق والوسائل التي تتخذها الإدارة التعليمية، لتنمية الحس الجمالي لدى الطفل، من خلال العمل الفني". [3] ويوضّح لنا مالك بن نبي أهمية العنصر الجمالي من خلال الكشف عن أثره من الناحية النفسية والاجتماعية ويتجلى ذلك في قوله: «لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل أو بالأفكار الكبيرة، فإنّ لمنظرها القبيح في النّفس خيالاً أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لابدّ أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه». [4] ومعنى ذلك أنّ للجمال أهمية اجتماعية كبيرة حيث يوجّه أعمال الفرد في المجتمع، ويرى مالك "أنّ بعض ملامح الحياة اليومية في مجتمعاتنا الإسلامية تفتقد هذا المبدأ فيذكر منظر الأطفال الشحاذين ذوي الملابس المرقعة والقذرة الذين يرتدون تلك الأسمال حتى يستذروا عطف الناس. ويرى أن منظرهم هذا لا يمثّل خللاً اقتصاديا فقط، ولكن أيضا يوضح تفريطنا في هذا الجانب المهم."[5]

ولهذا فإن ذوق الجمال يعتبر من أهم عناصر الثقافة الديناميكية لأنه يحرّك الهمم إلى ما هو أبعد من مجرد القيام بالعمل، وهو في الوقت نفسه يحقق شرطا من أهم شروط الفعالية. فبالذوق الجميل يجد الإنسان في نفسه ميلا إلى إتقان الأعمال وجعلها في أحسن صورة.

وخلاصة القول، لا يمكن للتربية أن تكون ذات فعالية إلا إذا تجلّت في كل مفاصل حياة الإنسان، الروحية، التعليمية، الأخلاقية، والجمالية؛ بكيفية عملية وذلك لإنتاج علاقات وحياة اجتماعية ناجحة، والتربية عملية مستمرة في حياة الإنسان، هدفها إحداث تغييرات في سلوكه وصولا إلى إحداث تغييرات في المجتمع.

---

[1] – مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 94.

[2] –مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 79.

[3] – صالح أحمد الشامي: التربية الجمالية في الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ص19.

[4] – مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 81.

[5] –نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، الدار السعودية للنشر، الرياض، ص166.

7. دور التربية في مواجهة تحديات العولمة الثقافية

يسعى كل مجتمع إلى توفير الظروف والوسائل والاستراتيجيات، التي تمكّنه من بلوغ الرقي الحضاري، لمسايرة التطورات ورفع التحديات التي تقتضيها مستلزمات العولمة. لهذا لابدّ من الاهتمام بالمؤسسات التربوية والتعليمية، والتفكير في كيفية الارتقاء بها من خلال توفير العوامل المساعدة على تحقيق التكوين التربوي والتعليمي الجيد.

ولهذا تعتبر التربية القوّة التي تحوّل أي تصوّر فكري للمستقبل، إلى واقع يعيشه المجتمع وتترجمه إلى سلوك؛ وبالتالي فإنّ أي تصور للعناصر الثقافية المختلفة، في ظل هذا التصور الفكري المستقبلي هو أساس العمل التربوي.

"لكن يجب التمييز بين التربية التي تُعِد الفرد ليتكيّف مع واقع موجود كيفما كان هذا الواقع، وتربية تُعِدّه ليُكيّف الواقع حسب النموذج الثقافي المنشود باعتباره قاعدة الانطلاق لبناء المجتمع التاريخي المتحضّر." [1]

ومعنى ذلك أنه من الضروري أن تكون التربية وسيلة للتغيير وإعداد الإنسان ليحسن توظيف معارفه في ميادين الحياة المختلفة، حسب النموذج الثقافي والحضاري لمجتمعه. ومنه لابد من إعادة المكانة المناسبة للقيم الإنسانية في عملية التربية؛ لأن المناهج التربوية والتعليمية المعاصرة، فصلت المعرفة العلمية عن القيم وركزت على العلوم المادية والتجريبية، دون اعتبار للغايات والقيم والأخلاق والدين التي تعطي للحياة قيمتها ومعناها.

وبما أن الحياة المعاصرة هي انعكاس مباشر للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، يرى مالك بن نبي أنّ ذلك يتطلب من الفرد التفاعل الإيجابي مع تلك المتغيرات، والتكيّف مع عناصر ثقافته لخدمة مصالحه وتحقيق أهدافه. كما يجب عليه أن يواجه مشكلاته بوعي وتبصّر للوقوف على الأسباب المؤدّية إليها ومن ثمّ معالجتها، وهذا بعد إلمامه ووعيه بالتغيرات الثقافية الحادثة في المجتمع.

"لا شك أن تكنولوجيا المعلومات –بفضل مرونتها–ستكون أكثر قابلية للتوجيه الاجتماعي. لكن ذلك يستلزم بداية نظرية اجتماعية قائمة على أساس التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة. فهذا التصور يرى أن الثقافة هي الأسلوب الكلي لحياة الجماعة الذي يتسق مع التصور الاجتماعي الإسلامي." [2]

إذا أرادت الدول النامية تحقيق التطور يجب أن يكون هدف التربية فيها هو تفكيك وتحطيم نمط التخلّف السائد، بهدف الانطلاق إلى العالم الأوسع للاستفادة من منجزاته المادية والفكرية، دون أن يكون ذلك على حساب القيم والهوية. بمعنى الانتقال من مرحلة التخلف والركود، والتي يدعو إلى هدمها وتقويضها، إلى مرحلة إعادة البناء والتطلّع إلى المستقبل أي تدعيم الدور التغييري للثقافة وتجسيد المنطق العملي الذي يتجاوب مع القدرة الإنتاجية في الناحية الاقتصادية. من غير إهمال دور المقاييس الجمالية التي تؤثر بشكل إيجابي في تنمية قدرات الفرد على الإبداع.

ويؤكد مالك بن نبي على أن أيّة محاولة لإصلاح أوضاع العالم الإسلامي الحضارية وبالتحديد التربوية منها، لا مناص لها من إعادة الاعتبار لدور الدين في هذه العملية. إذ لا يمكن تصور استقامة الحياة البشرية بمعزل عن ظاهرة التديّن، باعتبارها حقيقة فطرية في

---

[1] –عمر النقيب: مقوّمات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص56.

[2] –علي أحمد مذكور: التربية وثقافة التكنولوجيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 297.

الطبيعة البشرية بالإضافة إلى كونه عامل توجيه ومراقبة وتقويم للسلوك البشري بشقّيه الفردي والاجتماعي، وكذلك العامل الأساس الذي يضمن توجيه عملية التكييف والاشراط. [1]

يدعو مالك بن نبي إلى إعادة صياغة شخصية الإنسان المسلم من جديد حتى يكون إنسانا متحضّرا، يعي موروثه الحضاري من جهة، ويتفاعل مع حضارة الغرب المعاصرة أو حضارة الشرق الناهض من جهة أخرى. ولن يتحقق ذلك إلاّ في وسط ثقافة غنيّة بمؤثراتها ومجالاتها المختلفة. لهذا نحتاج إلى تقويم فعالية الوسائل المستعملة، حتى نقف على أسباب التأخر أو الركود.

لكن يجب ألاّ يقودنا منطق الفعالية إلى الإدمان على تقليد الآخرين والانفتاح الكامل على كل رياح الفكر من غير تمحيص وغربلة، لوضع الحدود أمام كل ما يتعارض مع هويتنا وقيمنا الأخلاقية، وخصوصيتنا الحضارية. وفي هذا الإطار يقول مالك بن نبي: «إنّ الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف والسخرية حتما أن تعكس هذه القاعدة حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها». [2] وهذا ما نجده في العالم الإسلامي الذي يعمل على جمع منتجات الحضارة ولا يهدف إلى بناء حضارة. وعندما نشتري منتجات الحضارة الغربية فإنّها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها. [3] فالحضارة عند مالك بن نبي تتّسم بالنمو والفاعلية وليس مجرد التنظيم للحياة البشرية، ذلك "أنّ الأشياء لا تؤدّي مفعولها الاجتماعي تلقائيا ولا تؤثر وحدها في صياغة العملية الاجتماعية، وإنما تؤثر بقدر ما يضاف إلى مفعولها من دوافع نفسية، وتوجيهات فكرية معيّنة، فالشعب الياباني كان يريد بالأشياء التي استوردها وسائل يواجه بها بناء حضارة، والبناء لا يتم بالأشياء مهما كانت صلاحيتها وثمنها، وإنما بالدوافع التي تحرك تلك الأشياء، والفكرة التي تربطها بالعملية الاجتماعية." [4]

وبإمكان المجتمع الإسلامي أن يستعيد فعاليته إذا حرّك قواه الإنتاجية بالعمل والإبداع وحسن اختيار الأساليب التي تتناسب مع مقتضيات عصر التقدم العلمي والتكنولوجي، خاصة في المجال التربوي والتعليمي، فإذا صلح الفرد صلح المجتمع، لكن من غير إهمال دور التخطيط، حيث إذا لم يتم الالتزام بأحد عناصره، فإنّ ذلك سيؤثر تأثيرا سلبيا على النتائج المرجوة.

خـاتمـــــة:

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول، أن مالك بن نبي ينفي عن التربية كونها مجرّد مفاهيم نظرية، بل هي سلوك عملي هدفه تكوين الإنسان الفعال المؤهل للنهوض بمجتمعه؛ لأنّ التفكير في صياغة المشاريع التربوية لا ينطلق من مجرّد النظر إلى التربية على أنّها صياغة "منظومة تربوية" لا تتعدى الاهتمام بما يحدث داخل جدران المؤسسات التعليمية؛ وإنما ينطلق من النظر إلى التربية على

---

[1] –عمر النقيب: مقوّمات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص223.

[2] –مالك بن نبي: شروط النهضة، ص47.

[3] –المصدر السابق: ص48.

[4] –مالك بن نبي: تأملات، دار الوعي، الجزائر، ص195.

أنها مشروع تشترك فيه كل المؤسسات الاجتماعية التي تقوم بوظائفها وفق ثقافة خاصة، ترتبط بالمناهج التربوية التي تستهدف إعداد الإنسان للمشاركة في بناء الحضارة، وهذا بعد تنقية محيطه الاجتماعي من جميع مظاهر التخلف.

فإذا كانت التربية تسعى إلى إحداث التغيير المرغوب في سلوك الفرد وفي حياة المجتمع، فلابد من توفر أسس وقواعد عملية تبنى عليها التربية حتى يتمكن الفرد من معرفة دوره في المجتمع ومن ثمّ المساهمة في عملية البناء الحضاري.

كما أن أفكار مالك بن نبي لا تتعارض مع المتطلبات العالمية المعاصرة؛ لأن من أهمّ ركائزها التكيّف مع الواقع المتغيّر وقبول تحدّياته، بعقل منفتح قادر على التفاعل مع الآخر دون عقدة أو خوف. فإذا كانت الثقافة تحتوي على الأخلاق، والجمال، والمنطق العملي، والصناعة الفنية، فإن أهميتها تزول وتصبح غير فعالة، إذا لم يتم إدراكها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد.

ومنه نستنتج أنه إما أن يكون الإنسان فاعلا في التاريخ محوريا في معادلة الحضارة، أو يكون كمّا ماديّا مستهلكا للحضارة وعبئاً عليها؛ لأنّ المسلم يحمل رسالة عالمية ومن يحمل رسالة عالمية عليه أن يدرك مشكلات الواقع العالمي ومتطلباته من أجل إيجاد الحلول والتكيف مع المستجدات. خاصة إذا علمنا أن قوى العولمة تعمل على تفكيك منظومة القيم الموجهة لشبكة العلاقات الاجتماعية، وتدعو إلى الحرية المطلقة من غير ضوابط شرعية أو التزامات أخلاقية؛ لأن هدفها الرئيس هو تحقيق المصلحة والمنفعة الاقتصادية.

التوصيات:

-يجب أن تهدف التربية إلى التغيير نحو الأفضل، ومن ثمّ تكريس الجانب العملي فيها؛ من خلال الأداء التربوي الذي تمارسه الأسرة، المدرسة، المسجد، وسائل الإعلام....) من توجيه وإرشاد وتوعية، من أجل الحفاظ على المجتمع وتفادي تلاشي هويته ومبادئه أمام تحديات العولمة الثقافية.

-ضرورة الاهتمام بالتربية الروحية والأخلاقية والجمالية؛ لأن العلم الذي لا يراعي القيم الأخلاقية والإنسانية تكون أضراره أكبر من منافعه.

-جعل التربية أكثر فاعلية بحيث تطور مهارات الإنسان وقدراته العقلية والفعاليات التي تساعده على مواجهة التحولات السريعة والتحديات المختلفة. وذلك من خلال العمل على إيجاد مناهج جديدة أكثر قدرة على بناء التفكير الذي ينمي آلية التحليل والبناء والتفكيك والتركيب.

-الاهتمام ببناء الإنسان المتسائل، المفكر، الناقد، المبدع، وليس المقلّد، التابع، الضعيف، المغلوب على أمره.

وأخيرا لا بد من الاهتمام بالجانب العملي في كل أداء تربوي، ولا نكتفي بالتنظير ووضع النظريات التربوية التي لا تأخذ بعين الاعتبار ظروف المجتمع وخصوصيته الثقافية؛ بمعنى ضرورة مراعاة الغايات التربوية التي تعكس فلسفة المجتمع وقيمه وثقافته وعاداته وتقاليده واتجاهاته في كل مجالات الحياة.

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

المصادر باللغة العربية:

-مالك بن نبي: تأملات، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الوعي، الجزائر.

-مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق.

-مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر-دمشق.

-مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق.

-مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق.

-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الوعي، الجزائر.

-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الوعي، الجزائر.

المصادر باللغة الأجنبية:

Malek Bennabi : La réalité et le devenir, Dar alem el afkar,édition en Algérie.

المراجع:

-أحمد أزوي: التعليم والتعلم الفعال، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب.

-باولو فرايري: تعليم المقهورين، ترجمة نور عوض، دار القلم بيروت.

-بيير بورديو: العنف الرمزي، المركز الثقافي العربي، بيروت.

-صالح أحمد الشامي: التربية الجمالية في الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

-عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، سلسلة الدراسات حول مالك بن نبي، الجزائر.

-علي أحمد مذكور: التربية وثقافة التكنولوجيا، دار الفكر العربي، القاهرة، 2003.

-علي أسعد وطفة: أصول التربية (إضاءات نقدية معاصرة)، لجنة التأليف والتعريف والنشر، الكويت.

-عمر النقيب: مقوّمات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، الشركة الجزائرية اللبنانية.

-ماجد عرسان الكيلاني: أهداف التربية الإسلامية، ج2، مؤسسة الرّيان، بيروت.

-نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دار السعودية للنشر، الرياض.

المعاجم والقواميس:

جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج1، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس.

محمد السيد علي: موسوعة المصطلحات التربوية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمّان.

Le Robert : dictionnaire d'aujourd'hui, Paris, France.